Among the Righteous
Lost Stories from the Holocaust's Long Reach into Arab Lands

Robert Satloff

Copyright © 2006 by Robert Satloff

Published in the United States by PublicAffairs™, a member of the Perseus Books Group.

No part of this book may be reproduced in any manner whatsoever without written permission except in the case of brief quotations embodied in critical articles and reviews. For information, address PublicAffairs, 250 West 57th Street, Suite 1321, New York, NY 10107.
PublicAffairs books are available at special discounts for bulk purchases in the U.S. by corporations, institutions, and other organizations. For more information, please contact the Special Markets Department at the Perseus Books Group, 11 Cambridge Center, Cambridge, MA 02142, call (617) 252-5298, or e-mail special.markets@perseusbooks.com

روبرت ساتلوف

من بين الشرفاء: القصص الضائعة من اختراق المحرقة النازية في الأراضي العربية.

الفصل الرابع
"لم يطلب منهم أحد أن يفعلوا ذلك"

في كل مرحلة من مراحل الاضطهاد النازي والفيشي والفاشي لليهود في الأراضي العربية، وفي كل مكان كان مسرحًا لهذا الاضطهاد، لعب العرب دورًا مؤيدًا. في بعض الأحيان، كان العرب مكونًا ضروريا لهذه العملية. وفي أحيان أخرى، كان الدور العربي سلبيًا لكنه مع ذلك هامًا. وكانت هناك بعض الحالات التي قام فيها بعض العرب بأكثر من مجرد التعاون – فقد ساهموا في جعل الموقف الذي كان عصيبًا في الأصل إلى موقف لا يُحتمل.

وإذا كان لنا أن نستخدم كلمة واحدة لوصف موقف معظم العرب من اليهود خلال سنوات الحرب فهي "اللامبالاة". فهذه الكلمة ترد مرارًا فيما يرويه اليهود عن تلك الفترة. فعلى سبيل المثال، يصف أحد المحاربين القدامى بمعسكر العمل في بنزرت في مذكراته كيف كان رد فعل العرب عندما رأوا العمال اليهود يساقون أرتالاً في شوارع المدينة حاملين على عواتقهم المجارف والدلاء: "نظر العرب إليهم بلا مبالاة".[1] كما لاحظ أحد مؤرخي تلك الفترة والذي سجل كتابته في الأعوام الأولى التالية للحرب، أن "موقف الغالبية العظمى من السكان غير اليهود في تونس توافق مع موقف السلطات [الفرنسية]: كانت هناك بعض مظاهر التعاطف، لكن اللامبالاة كانت تجسد الموقف الغالب".[2]

واللامبالاة تأخذ أشكالاً عديدة. ففي أحد أشكالها، تشير اللامبالاة إلى نوع من الرواقية الصارمة وهو شكل من أشكال اللافعل الجامد. ومثلما كانت الحياة قاسية بالنسبة لليهود في الأراضي العربية خلال الحرب، كانت كذلك بالنسبة للغالبية من العرب. فهناك ندرة في السلع والأطعمة توزع بالحصص والجوع والمرض يحصدان أرواح الكثيرين. ومن الناحية السياسية، لم يكن العرب يقفون على أرض ثابتة. فبالنسبة للكثير من الألمان وشركائهم الأوروبيين، كان العرب فئة مهمشة أدنى مرتبة من اليهود. يبدو لنا ذلك من قول أحد الضباط الألمان متوعدًا أحد العرب الذي كان يروق له ما يقع لليهود بالقرب من تونس "سيأتي الدور عليكم. سننتهي أولاً من اليهود وبعد ذلك سنتفرغ لكم."[3] وإذا كانت اللامبالاة تعني أن العرب كانوا منشغلين بتأمين وسائل البقاء على قيد الحياة مثل البحث عن الغذاء والمأوى والعمل وغير ذلك - ولم يكن بوسعهم الاستجابة لشعور التعاطف الذي تفرضه الطبيعة البشرية تجاه اليهود من نفس بلدهم، عندئذ تكون هذه "اللامبالاة" من جانبهم موقفا نتفهم دوافعه، بل ونراه حتى مشروعًا لأنه وليد الضرورة.

وعلى الجانب الآخر من أشكال اللامبالاة، قد تعكس اللامبالاة كذلك التجاهل القاسي لليهود الذين عاشوا – وفي نفس الوقت حظوا بالحماية والتسامح والتبعية – بين المجتمعات العربية لمئات الأعوام. وإذا كان هذا هو ما يعنيه الملاحظون المعاصرون من وراء استخدام هذا المصطلح، فعندئذ يكون اللامبالون، من أحد الأوجه، شركاء ضمنيًا في جرائم الأغراب على أراضيهم. وإن كان من الواضح أن الكثير من العرب، أيا كان موقفهم تجاه مصير اليهود، لم يكونوا لامبالين أو حياديين فيما يتعلق بمجيء من قاموا بتعذيب اليهود. وهو ما يمكن أن نستشفه من الأغاني المشهورة التي كان يرددها البربر في هذه الفترة والتي تكشف عن دعمهم لهتلر ورغبتهم الملحة في المشاركة معه.[4] وقد كان لرئيس العهد الفيشي، المارشال بيتين، مكانة خاصة في قلوب الكثيرين من العرب، وذلك لسنه ومآثره العسكرية وتأكيده على أهمية الأسرة وشخصيته الحاذقة التي يميزها التواضع. وعلى حد قول الأستاذ الجزائري، أحمد بن ذكري، أحد أعضاء المجلس الوطني الفيشي، "بالنسبة لنا كمسلمين، يعتبر بيتين [سيدًا]."[5]

والوضوح في هذه القضية يمثل مطلبًا هامًا: وباستقراء كافة الروايات، فإن غالبية العرب لم يشاركوا أو يدعموا بشكل فعال الحملة المضادة لليهود التي أحضرها الفاشيون الأوروبيون إلى شمال إفريقيا. لقد كان الشغل الشاغل لهذه الأغلبية هو كيف تضمن بقاءها على قيد الحياة، أما من ينتمون إلى الطبقة السياسية فقد كان التحدي الجديد للحكم الاستعماري يمثل اهتمامًا أكبر من المشاركة في اضطهاد اليهود.[6] ولكن إذا كان للمرء أن يلتمس العذر لهؤلاء العرب الذين أسعدهم انهيار الجمهورية الفرنسية أمام جحافل النازية الألمانية، فإن المعنى العام للترحيب الذي لاقاه الأوربيون الذين قاموا باضطهاد اليهود ينم عن موقف من اللامبالاة تجاه مصير اليهود يصعب تبريره. وقد كان الكثيرون من العرب يرون أنه إذا كان دحر المستعمرين الفرنسيين يعني دحر اليهود، فليكن الأمر كذلك.

ولو انتقلنا إلى درجة أعلى لمشاركة العرب في اضطهاد اليهود، نجد من العرب من لم يكتف بمشاهدة الأوروبيين وهم يقومون بإحضار اليهود ثم تعريضهم لأقسى عناصر الاضطهاد العنصري ولكنهم صفقوا له. ورغم أنه لم يؤدوا أدوار البطولة في دراما اضطهاد اليهود إلا أنهم كانوا، في أحد الأوجه، أشبه بالكورس اليوناني.

وفيما يلي بعض المقتطفات من شهادات شفهية تحكي هذا الجانب من القصة. يذكر جاد شاهار، أحد المحاربين القدامى بمعسكرات العمل في صفصاف وسجنان في تونس، أن السكان المحليين من العرب رحبوا بالجنود الألمان وهم يقومون بتجميع اليهود في شوارع العاصمة. وكما جاء على لسانه في إحدى المقابلات "لقد نالت القوات النازية التي قبضت على اليهود وطافت بهم في تونس استحسان السكان المسلمين". "ألقى المسلمون بالزجاجات علينا في محطة ماطر، وأوعية المياه التي [كنا نخطط] أن نروي بها عطش الظمأ من اليهود المنهكين وكبار السن."[7]

ويذكر يهوشوا دويب، أحد الناجين من معسكرات العمل في تونس، أن
"العرب كانوا يشعرون بالارتياح" عندما استاقه الألمان هو ورفاقه اليهود عبر المدينة في طريقهم إلى أحد مواقع العمل. "لقد كانوا يقولون لنا: "احمل المجرفة يا شالوم [اسم يهودي شائع]" ويقصدون: "حتى هذا الوقت كنتم تعملون في مهن تجارية أو كتابية، أما الآن فإن عليكم أن تجربوا المهام الصعبة." وحتى النساء العربيات، خالفن العادات المحلية التي أبقت عليهن داخل بيوتهن طوال الوقت تقريبا، وخرجن ليشاهدن العمال اليهود وهم يتعرضون للعقاب ويسخرن منهم، على حد قوله.[8] كما ذكر فيكتور كوهين، من تونس كذلك، أنه عندما قام الألمان بتجميع العمال اليهود عبر شوارع المدن انكشفت أخيرا "الطبيعة الحقيقية" لسكان المدينة من العرب. ويقول "كانوا سعداء" "ويضحكون بسخرية واستهزاء وهم يقولون: "خذ المجرفة، التقط المجرفة."[9]

أما يهودا شاكمون، الذي عاش تحت الحكم الإيطالي في بنغازي في ليبيا، فيقول بأن عصابات الشوارع من العرب استفحل أمرها وزادت قوتها في سنوات الحرب حتى إن اليهود كانوا يخشون مغادرة منازلهم بعد حلول الظلام. وقال "كان العرب يرمون علينا البرتقال والطماطم والأحجار" "وكان على كل يهودي أن يقبع مختبئًا في بيته بعد الخامسة مساءً. فقد كانت المنازل تُغلق بالقضبان الحديدية ولا يكون بوسعنا الخروج حتى الصباح."[10]

وقد أجبر الألمان إيرنست ياهوشوا أوزان، وكيل مبيعات لأعمال أسرته، على القيام بأعمال السخرة في مزرعة بتونس. ويتذكر السعادة البالغة التي كان يجدها بعض العرب في محنة اليهود. "بالقرب من المزرعة التي كنا نعمل بها كان يعيش عدد من العائلات العربية [الذين كانوا] دائما يقومون بإخبارنا بأشياء من قبيل: "إن تونس دمرتها القنابل تماما...ولم يبق بها أحد على قيد الحياة." لقد كانوا يعرفون أننا من تونس. وكانوا "يقصدون" إخبارنا بمثل هذه الأشياء" على حد قوله.[11]

هؤلاء المشجعون للاضطهاد كانوا عادة من المنتمين للطبقات الاقتصادية الدنيا. والذين كانوا يجدون في عقاب اليهود نوعًا من الرضا، وذلك لأن اليهود، على الرغم من أن العدد الأكبر منهم كان من الفقراء، كانوا يعتبرون على نطاق واسع من المجتمعات الثرية. وبالتحرك إلى أعلى السلم الاجتماعي العربي نجد من العرب إما من أيد فرض قوانين مضادة لليهود أو من كان يشتكي من أن القوانين الجديدة ليست كافية. فقد كان بعض أصحاب المكانة من العرب يرون أن القوانين المضادة لليهود تحتوي على الكثير من الثغرات ولا تفيد المجتمع العربي المحلي على النحو المطلوب. وفي ديسمبر 1940، اقترحت إحدى الصحف العربية في الجزائر العاصمة أن تحذو السلطات في الحكومة الفيشية حذو الألمان وتطالب اليهود بارتداء زي مميز: "إنه لأمر ضروري أن يُمنع اليهود من ارتداء قبعات الأوروبيين والسكان المحليين...ومن هنا فإننا نقترح أن تفرض الحكومة على اليهود الجزائريين ارتداء غطاء الرأس المميز لهم – القلنسوة اليهودية التقليدية..."، وقبل ذلك بشهر، كانت نفس الصحيفة قد قالت أن اليهود غاية في الدهاء والمكر بما يجعل حماية الغالبية العربية من مؤامراتهم أمرًا يتطلب إجراءات أكثر صرامة. وقد جاء في افتتاحية صحيفة البلاغ أن "العلاج الفعال الوحيد هو عزلهم في جزيرة نائية أو في صحراء بعيدة تحت رقابة دولية صارمة" ولم يكن هذا بالطبع تأييدًا للتطلعات الصهيونية.[12]

وإذا كان هناك بعض العرب الذين سرهم ما كان ينزل باليهود من عقاب، كان هناك أيضًا البعض الذي استغل معاناة اليهود في تحقيق مكاسب تجارية. ورغم أن هؤلاء لم يلحقوا باليهود ألمًا أو حزنًا، إلا أنهم كانوا يستغلون مصائب اليهود في تحقيق مكاسب مالية مباشرة. فقد زاولوا الأعمال التي ترتبط في الغالب بمثل هذه المواقف مثل التربح. فمع قدوم الحرب، ظهر نقص حاد في الكثير من السلع والمواد الغذائية الأساسية في المغرب والجزائر،

وكانت الأموال الإضافية التي يكسبها العرب من اليهود تساعدهم على تخطي هذه الظروف الصعبة. فعلى سبيل المثال، احتفل التونسيون بشهر رمضان وكان الخير فيه وفيرًا في مستهل خريف عام 1942 وكان البلد يحتفظ بحالة من استقرار المعيشة حتى بداية الاحتلال الألماني. وبنهاية العام، نفدت المؤونة وتفشت المتاجرة في السوق السوداء وظهرت المؤشرات الأولية للجوع، ومن هنا وجد بعض العرب في فكرة استغلال اليهود برفع أسعار الأغذية والإيجار والضروريات الأخرى حلاً معقولاً في الأوقات العصيبة. وفي ظل الحرب، كان ذلك نوعًا من التربح الصغير. ورغم ذلك، فبالنسبة لليهود كانت الأسعار الفادحة على الضروريات الأساسية والسرقة والفساد والنفاق التي اتسم بها اقتصاد السوق السوداء تعني الخيط الرفيع بين من يبقى حيًا ومن لا يستطيع النجاة.

وتروي الشهادات الكثير من القصص عن اليهود الذين وقعوا ضحايا لاستغلال بعض العرب أثناء الحرب. تشير ميريام ليفي، من بنغازي، أن الفوضى التي كان يسببها القصف الجوي كان يتبعها على الفور عمليات نهب لأملاك اليهود. "إن العرب كانوا يستغلوننا. فهم دائما يريدون المال، فما إن تسقط القنبلة على منزل يهودي حتى تُفقد كافة محتوياته. فقد كانوا يسرقوننا خلسة وبالإكراه، ولم يتورعوا عن فعل أي شيء..."[13] ووفقا لما رواه إسحاق يعقوب سمادجا من المرسى، وهي ضاحية تطل على البحر في تونس، فقد ارتبط النهب ببعض الأعمال الوحشية: "بعد انتهاء القصف...كنا نرى وحشية العرب في أبشع صورها. كنا نرى كيف يقطعون أصابع اليدين [من الجثث] لسرقة الخواتم والحلي الذهبية من اليهود. بل رأينا كيف كانوا يجتزون الرقاب للحصول على القلائد، والخصر للحصول على الأبازيم..."[14] ويحكي فيكتور كوهين من تونس قصة أخيه، الذي نُقل إلى مكان ناءٍ قصي في المناطق الريفية لقضاء أشغاله الشاقة. في الأيام الأربعة الأولى، كما يقول، لم يعط الألمان للعمال أي طعام. وكان السكان المحليون من العرب يأتون ليبيعوا للعمال قشر البرتقال. ليقوموا بعد ذلك بسرقته. وكان [العمال] يموتون جوعًا."[15]

كان اليهود يتهمون العرب بالمغالاة في الأسعار، وخاصة عندما كان اليهود يضطرون للنزوح عن منازلهم المدمرة في المدن التونسية واللجوء إلى القرى العربية في المناطق الريفية. وتروي كورين بوكوبزا-هاكماون قصة عائلية عن خالها، ألبرت ناتاف، والذي كان من ملاكي الأراضي الأثرياء في سوسة والذي أعطى "مبلغ ضخم من المال" لعربي في قرية جمال لإيواء عائلته من قصف قوات الحلفاء للمدينة".[16] ويتذكر ياكوف زريفي، من قرية بالقرب من صفاقس، ثاني أكبر المدن التونسية، المبالغ الباهظة التي كان يفرضها العرب على اليهود لإيجار المنازل أو الشقق بعدما أجبر الألمان الكثير من اليهود على ترك منازلهم.[17]

وفي المغرب، رأى بعض العرب من أصحاب المكانة في القوانين التي تصدرها الحكومة الفيشية ضد اليهود فرصة لتحسين ثرواتهم الشخصية وأوضاعهم السياسية. ويشرح رئيس الوزراء محمد الموقري هذه الحاجة الملحة لوزير خارجية الحكومة الفيشية بول بودوين: قبل أن يؤسس الفرنسيون حكومة الوصاية الخاصة بهم، كان اليهود يمضون عشرين عامًا في جمع ثرواتهم، ويحتفظون بها لعشرة أعوام إلى أن تسرقها الحكومة منهم، وهكذا دواليك. غير أن ثمانية وعشرين عاما من الوصاية الفرنسية تهدد بكسر هذا التواتر، كما يقول الموقري، مما أدى إلى أنه لم يعد أمام المغربيين من أصحاب نفس الرأي سوى عامين للعمل عن كثب مع الحكومة الفيشية لنهب اليهود إذا ما رأوا الحفاظ على الدورة المكونة من ثلاثين عامًا.[18] وقد كان الكثيرون من المسؤولين بالمغرب يرحبون بالمساعدة في هذا الموعد النهائي. فعلى سبيل المثال، انقلب الباشا في مراكش على المجتمع المحلي من اليهود كوسيلة للدفاع عن نفسه ضد الاتهام المحرج والذي يحتمل أن يؤدي لعواقب خطيرة بأنه مؤيد للفرنسيين للغاية. ولم يتوقف الأمر عند حد التوصية بارتداء اليهود المحليين لزي مميز لتمييزهم عن العرب، بل قام بما أسماه أحد المؤرخين "ضربة كبرى" لليهود القاطنين للضواحي الجنوبية من المغرب بفرضه ضريبة تبلغ 100.000 فرانك على سكان الحي اليهودي (*الملة*). وبالمثل أصدر باشا مدينة سلا، المدينة الأخت للرباط، مرسومًا يمنع اليهود من استخدام المسلمين كأجراء.[19] وفي مدينة بني ملال أصدر الحاكم المسلم والمراقب المدني الفرنسي مرسوما مشتركا يقضي بأن أي أوروبي يرغب في الاستقرار بالمدينة يحق له اختيار أحد المنازل التي يسكنها اليهود للعيش فيها.[20] والحقيقة أن المسؤولين في العهد الفيشي كانوا يتطلعون إلى دعم الاتجاه للتربح لدى السكان العرب تفاديًا لاحتمال تذمرهم. وهو ما يتضح مما كتبه القائد المؤقت لقوات الشرطة في تونس في تقريره الشهري في أغسطس 1941 حيث يقول "إن السكان المحليين هادئون بفضل حالة الرخاء التي يعيشونها والتي لم يعتادوا عليها من قبل، والغالبية العظمى منهم موالون لنا". ويقول القائد بأن هذا الولاء يرجع نوعًا ما إلى مكاسب الحملة المضادة لليهود- لاشك أن القائد يبالغ لمصلحة رؤسائه- وليس نجاح أجهزة الدعاية المؤيدة للمحور.[21]

وإلى الحد الذي كانت عليه هذه الأعمال غير لائقة ووضيعة، فإن هذه التصرفات الطائشة من جانب العرب تستحق أكثر من مجرد الإشارة في أي تأريخ نزيه لسنوات الحرب في شمال إفريقيا، إذا كانت تعكس الصورة

الإجمالية لدور العرب في الحملة المضادة لليهود بالأراضي العربية. أما إذا كان كل ما قام به العرب في دعم الاضطهاد الأوروبي لليهود يتمثل في مجرد الشعور بالسعادة والرضا للعقاب الذي ينزل بأقلية تتمتع، في نظر الكثيرين، بثروة وامتيازات غير عادلة- وربما اكتساب بعض من النقود التي كانوا في حاجة ماسة لها في سنوات الحرب – فحينئذ يكون من الظلم أن نحملهم المسئولية في جرائم ارتكبها الأغراب على أراضيهم.

غير أن الكثيرين من العرب قاموا بأكثر من مجرد الهتاف على جانبي الطريق واليهود يساقون إلى أعمال السخرة. لقد وفروا القوة العاملة - الحراس والمشرفين على العمال وسائقو القطارات وما شابه – التي جعلت الاضطهاد ممكنًا. وإذا كان لنا أن نصدق الروايات العديدة لشهود العيان، فإن عددًا كبيرًا منهم قام بهذه المهام عن قناعة تامة وأحيانا عن رغبة متعمدة. وفي بعض الأحيان كانت حماستهم تتسم بالعنف غير المبرر الذي يقترب من السادية. إن هذه التروس العربية الضرورية في آلة النازية والفيشية والفاشية أدت وظائفها على خلفية هذا التأييد المتحمس من الآلاف من ورائها. إن رؤساء المشجعين الناشطين وكذلك المتفرجين السلبيين خلقوا بيئة للمشاركين الراغبين، فلو أن المجموعتين الأوليين لم تقوما بدورهما، لكان من غير المؤكد أن تقوم الأخيرة بدورها. ولهذا السبب، إن لم يكن لسبب آخر، فإننا يمكن أن نضعهما في الصفحات الأولى من فصل الدور العربي في اضطهاد اليهود على الأراضي العربية.

كان المشاركون الراغبون متواجدين في الكثير من الأماكن يؤدون المهام اللازمة لتيسير عجلات الاضطهاد. وتؤكد الكثير من الشهادات أن الجنود ورجال الشرطة والعمال العرب لعبوا جميعا أدوارًا - أحيانا كبيرة وأحيانا صغيرة - في تنفيذ مخططات اضطهاد اليهود على يد الأوروبيين في شمال إفريقيا: بدءًا من تنفيذ القوانين المضادة لليهود، ومرورًا بتجنيد العمال اليهود، ووصولاً إلى تشغيل معسكرات السخرة. ومن ضواحي الدار البيضاء إلى صحاري جنوب طرابلس، عمل العرب بصورة منتظمة كحراس وخفر ومشرفين على هذه المعسكرات. وباستثناء حالات نادرة، كان الأسرى من اليهود (وغيرهم) يخشون العرب بصفتهم خدم راغبين ومخلصين لأسيادهم من النازيين والمسؤولين في الحكومة الفيشية والفاشيين.

ألحق يهوشوا دويب بثكنات فيلبير ذائعة الصيت في بنزرت والتي تشتهر بكونها الأشد قسوة بين مواقع السخرة في تونس. وهو يتذكر أحد الحراس المحليين المتعصبين الذي كان قائدًا لمجموعة من العرب الآخرين مهمتها تعقب وإرجاع اليهود الذين كانوا يحاولون الهرب من مخاطر القصف الليلي. فيقول: "كان يقوم بجمع أعداد أكثر من العرب حيث يهددوننا ويجبروننا على العودة إلى الجيش الألماني".[22] ويتذكر تزيفي حداد من مدينة جابي في تونس أن المشرف من العرب – وليس الألمان أو الإيطاليون - كان موكلاً بإحضار جماعة من العمال يبلغ عددها خمسين عاملاً إلى موقع العمل في الصباح وإرجاعها إلى المدينة كل مساء.[23]

وبالنسبة لبعض - وربما أغلب - هؤلاء العرب، كانت حراسة اليهود وخدمة الألمان والإيطاليين والفرنسيين جانبًا ضروريًا للحرب حتى وإن كان يؤسف له. لم تكن هناك متعة في الوظيفة، إنما هي الحاجة إلى المال. ورغم ذلك فبالنسبة للكثيرين، كان اضطهاد النازية والفاشية والفيشية لليهود فرصة للمشاركة في حملة الأوروبيين المضادة لليهود. وسواء كانوا تابعين أم مشرفين، أصبح هؤلاء العرب شركاء كاملين في المعاملة السيئة لليهود على الأراضي العربية أثناء الحرب.

وفي كافة أماكن التعذيب، كان العرب دائما هناك يلعبون دورا في تنفيذه. فالحراس العرب، على سبيل المثال، كانوا يقومون بصورة منتظمة بجلد السجناء "معسكرات العقاب" في الصحراء.[24] وتدلل إحدى الروايات الجزائرية على الممارسات الوحشية التي كانت متبعة في كلومبو-بيشار، والذي يعد واحدًا من أكبر معسكرات السخرة التابعة للفيشية، بقصة أحد المعتقلين الذي قفز من نافذة الثكنة وهرب إلى الصحراء، ولم يكن تعقبه أمرًا ممكنًا سوى عن طريق "الجنود العرب الذين تعقبوه على ظهر خيولهم وربطوه فيها عائدين به إلى المعسكر." هذا الرجل الذي تم القبض عليه أرسل إلى مكان كالجحيم يسمى هجيرات مجيل حيث تعرض للتعذيب وتوف على إثره بعد ثمانية أيام.[25] وفي جنين أبو رزق، وهو أحد معسكرات الاعتقال سيئة السمعة التابعة للحكومة الفيشية، كان القائد السادي، العقيد بيير دي ريكو تحت قيادته فريق من التابعين من بينهم مواطن ألزاسي من المؤيدين للفاشية وألماني يعمل كرئيس لعصابة محلية من السفاحين المعادين للسامية وشرطي عربي يسمى على الغويسني.[26] وفي ديجلفا في الصحراء الجزائرية، كان هناك سادي آخر، وهو القائد جي كابوتشي، الذي كان يستمتع بتجريد السجناء من كافة ملابسهم ثم جلدهم بالسياط. وكان يمنع السجناء من إشعال النيران طلبًا للدفء. وفي ليالي الصحراء شديدة البرودة، كان المعاون العربي المخلص لكابوتشي- وهي شخص يعرف لدى الأجيال التالية باسم أحمد[27]– يجد متعة خاصة في ترك السجناء حتى يتجمدوا من البرد.[28] كذلك كان هناك عربي يعمل

كمشرف على معسكر السخرة في مزرعة دوميرج فريتا بالقرب من مدينة ماطر شمال تونس. وتحكي الروايات عن النظام اليومي من الألم والعذاب غير المبرر الذي فرضه على الأربعين يهوديًا الذين شاء سوء حظهم أن يرسلوا للعمل تحت إشرافه.

ويصف أحد الضباط البريطانيين ممن عملوا في لجنة الحلفاء المعنية بالتحقيق في معسكرات السخرة التي أقامتها الحكومة الفيشية وتحرير المعتقلين بها، دور الجومير - الجنود العرب المحليون – في أحد معسكرات العقاب الصغيرة على مسافة غير بعيدة عن مدينة أبو عرفة في جنوب شرق المغرب حيث توجد المناجم والسكك الحديدية.[30]

كان معسكر عين الكوراك تحت قيادة ستة من صغار الضباط السابقين في فيلق الأجانب....وكانت تتم حراسته والإشراف عليه بواسطة مجموعة من الجومير (مجموعة من العرب المحليين من المناطق الجنوبية) يصل عددهم إلى حوالي ستين فردًا. كانت مهمة هؤلاء "الجومير"....إحباط محاولات الهرب التي يقوم بها من "يخضعون للتأديب". كانوا يحرسون المعسكر ببنادق محشوة بالرصاص ومزودة بحراب وكانت لديهم تعليمات باستخدام هذه البنادق عند أي محاولة للهرب.... وكان بعض العمل الذي يقوم به النزلاء في المعسكر يخضع لإشراف "الجومير"....

لقد كان الحراس العرب، يشرح الضابط، هم أيضًا القائمون بالتعذيب في المعسكر. كانوا هم المشرفين على *المقبرة*، إحدى وسائل العقاب وقد تناولتها بالوصف في الفصل الأخير، وكان عليهم أن يتأكدوا من أن السجناء، الذين يرقدون على فضلاتهم، ساكنون كالموتى، لا يتحركون لطرد ذبابة أو للهرب من عقرب. يقول: "إن هؤلاء الذين كانوا يتجرؤون على رفع رؤوسهم كانوا يعرضون أنفسهم لوابل من الحجارة التي يلقيها الحراس العرب أو للركل والضرب بالبنادق".

وتشتمل وثيقة مكتب الخارجية البريطانية الصادرة عام 1943 والمعنونة "المعاملة الوحشية لليهود والغرباء في المغرب" والتي تحكي قصة خمسة من اليهود البولنديين الذين وصلوا إلى لندن بعد تحريرهم من معسكرات السخرة التابعة للحكومة الفيشية، على تفاصيل التعذيب في المقبرة والدور الذي لعبه الحراس العرب في تنفيذ التعذيب:[31]

كانت الجرائم التي تؤدي بمرتكبها إلى السجن في *المقبرة* من نوعية جريمة اليهودي الألماني سيلجو. في يناير 1942، أصيب سيلجو في ساقه ولف ضمادة حول الجرح. وكانت الضمادة تنزلق لأسفل مما يجعله يتوقف عن السير من وقت لآخر لرفعها لأعلى. وكان ذلك سببا كافيا لجاير [عضو الفيلق الأجنبي] كي يعاقبه بخمسة عشر يومًا في *المقبرة*. ومثل غيره من المعتقلين، كان عليه أن يرقد مستلقيا على ظهره ليلاً ونهارًا. كان يلتحف العراء ولا يجد ما يرتديه سوى زي الفيلق البالي ودون أية ملابس داخلية. ولم يكن يُسمح له بالحركة أو تغيير موضعه في *المقبرة*. وفوق المقابر كان يقوم مخفر لأحد الحراس العرب الذي يراقب الضحايا ليطمئن إلى أنهم يرقدون في سكون. كان هناك 24 مقبرة في الصف. وإذا تململ أحد في رقدته وكان أحد العرب بالقرب منه، أصابته ضربة بمؤخرة البندقية. أما إذا كان العربي بعيد ولم يكن بوسعه الوصول إلى الرجل، فإنه يقذفه بالحجارة. والحالة الوحيدة التي كان يسمح فيها للرجل برفع رأسه قليلا كانت بعد العواصف الممطرة وامتلاء القبور بالمياه. ففي هذه الحالة كان يسمح له بالحصول على حجر كوسادة للرأس حتى لا يلقى حتفه غرقًا. ولأن التربة التحتية كانت طينية، فقد كان الماء يظل لثلاثة أيام حتى يتم تصريفه. [أحد الرواة] كان عليه ذات مرة أن يرقد في الماء لثلاثة أيام ولياليهن، لكنه كان محظوظًا. فقد كان ذلك في الصيف ورغم أن الليل كان شديد البرودة إلى أن الماء لم يتجمد. أما سيلجو فلم يكن محظوظا إلى هذا الحد. فقد حُكم عليه في يناير حيث كان الماء الذي يدخل قبره بعد العاصفة المطيرة يتجمد أثناء الليل. وبعد أن أنهى مدته البالغة خمسة عشر يومًا خرج من المقبرة وقد أصيبت كلتا ساقيه بقضمة الصقيع. ونقل إلى المستشفى ليتم بتر كلتا قدميه.... لم يكن يُسمح للضحايا بالكلام فيما بينهم، على الرغم أن كل مقبرة كانت لا تبعد سوى 40 سنتيمترًا عن التي تليها. وكانت نوبة الحراسة تتكون من ستة حراس عرب يتم إراحتهم كل ساعتين. وكان جاير أو أحد الحراس الآخرين يحضر الوجبات للنزلاء – 1 لتر من الماء عند الساعة 0800 ساعة، 250 جرامًا من الخبز وكوبًا من الماء في الساعة 1200 وكوبًا آخر عند حلول الظلام. ولم يكن يُسمح لأحد بقضاء حاجته إلا أثناء الزيارات الثلاث للحراس. وإذا لم يتمكن من القيام بذلك في هذه الأوقات فليس أمامه سوى أن يقضي حاجته في ملابسه وينام بحالته التي هو عليها. ولم يكن للحراس العرب سلطة السماح بمغادرة القبر. ونظرا لأن غالبية السجناء كانوا يعانون من الإسهال الشديد، فقد كان نوم الرجل على قذارته القاعدة وليس الاستثناء.

في الفصل الثالث، أوردت قصة هاري ألكسندر، وهو يهودي من ليبزيج ظل حيا لمدة عامين في ديجلفا وهي منطقة أشبه بالجحيم ومن أشد معسكرات الاعتقال التابعة للحكومة الفيشية في شمال إفريقيا قسوة. ومنذ لحظة وصوله إلى محطة قطار ديجلفا، بدأ الحراس العرب في وضع عناصر محنته المرعبة:

كان سلاح الفرسان يعد من أفضل جيوش العرب. وأفراده يركبون الخيل. وهم عتاة غلاظ القلوب. كانوا يجلدوننا بالسياط طوال الطريق [من محطة القطارات] حيث كنا نقطع مسافة من ميلين إلى ثلاثة أميال إلى المعسكر سيرا على الأقدام عبر الرمال وأشعة الشمس الملتهبة. كنا نُضرب بلا رحمة وبلا توقف حتى نصل إلى هناك. ومن يسقط من الإعياء كان علينا أن نسحبه طوال الطريق بسبب السلاسل التي تربطنا.

ومؤخرا في شهادته التاريخية الشفهية، والمصورة بالفيديو لصالح المتحف التذكاري للهولوكست في الولايات المتحدة الأمريكية، وصف هاري ألكسندر التعذيب الذي لاقاه على يد الحراس العرب قائلاً:

كانت أدنى مخالفة للقواعد سببًا كافيًا ليقوموا بدفنك في الرمال حتى عنقك. ويقوم العرب بالتبول فوق رأسك. وإذا حركت رأسك، كانوا يلتقطون حجرًا كبيرًا ويرطمونها. كان يُفترض منك ألا تتحرك، حتى وإن لدغك عقرب أو أفعى سامة أو نملة أو أيا كان، عليك في كل الأحوال ألا تتحرك.
ولأنهم كانوا عزل من أي شيء يمكنهم أن يدافعوا به عن أنفسهم، كانت مقاومة هاري ورفاقه الآخرين من النزلاء تتمثل في حرمان معذبيهم من الاستمتاع بصراخهم من الألم.

كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكننا أن نرد بها ونعترض على هذه المعاملة القاسية هي عدم الاستسلام لعقابهم. فليضربونا كيفما شاءوا...كنا نتحمل الضربات في هدوء وصمت بلا أنين. لم نكن نصدر صوتا أو نصنع ضوضاءً. كان الضرب يؤلمنا، وكانت جراحنا تنزف. كان الألم شديدًا. وكلما تحديناهم على هذا النحو، اشتد ضربهم لنا وتفننوا لنا في أنواع جديدة من العقاب أشد تنكيلا، فنُحرم الماء طوال اليوم، ونُمنع الطعام ليومين، ونقف عراة مربوطين على قوائم في الشمس الإفريقية الحارقة طوال اليوم، وما أكثر صنوف العذاب لديهم، فقد كانوا يضعون دلوا من النمل على رؤوسنا، ويدفنونا في الرمال حتى رقابنا ويتبولون فوقنا، وربما ضربوا الواحد منا فشجوا رأسه – ولم يكن شيء مما فعلوه يجعلنا نتأوه.

وعندما سُئل ما إذا كان بالإمكان التماس العذر لحراسه من العرب على أعمالهم هذه لأنهم "كانوا فقط ينفذون الأوامر"، أجاب هاري:

كلا وألف كلا! كانت القسوة والأعمال البربرية التي ارتكبها الحراس من تلقاء أنفسهم. لم يخبرهم أحد بأن يضربونا طوال الوقت. لم يخبرهم أحد بأن يربطونا بالسلاسل معًا. لم يخبرهم أحد بأن يضربونا بالسلاسل والسياط... لم يخبرهم أحد بأن يربطونا عراة ويقومون بضربنا، وأن يعلقوننا من أذرعنا، وأن يدفنونا في الرمال حتى رؤوسنا ويتبولوا عليها. لم يخبرهم أحد بأن يفعلوا شيئا من ذلك. لقد أخبرونا بأنه كان من المفترض أننا محتجزون للعمل في معسكر خطوط السكك الحديدية. لكن أحدًا لم يحدد لهم المدة أو شدة التعذيب أو وسائله أو... إنما كان كل ذلك من تدبيرهم وبإرادتهم. وكانت الابتسامات المرتسمة على وجوههم تكشف عن حقيقة استمتاعهم بما يقومون به.[32]

وفي بعض الحالات، كان الجنود العرب يسيئون استخدام سلطتهم وأسلحتهم في إرهاب اليهود. وبعد عملية تورش، وصف موريس ماراتشي، وهو يهودي من المغرب، مجموعة من أعمال "إساءة السلطة" من قبل العرب في خطابات إلى الدبلوماسيين البريطانيين والأمريكيين. وقد كتب بأن القوات العربية كانت تقتحم المنازل بصفة غير قانونية، وتغتصب الأموال، بل لم يتورعوا عن "إكراه ربة المنزل على قضاء الليل معهم".[33] وقد اشتد سخط الجيوش العربية لفرحة اليهود بالانتصار السريع للقوات البريطانية الأمريكية على الجيوش الفيشية في عملية تورش وانتقموا من اليهود بإغلاق بوابات الحي اليهودي في الرباط لثلاثة أسابيع محتجزين بذلك آلاف اليهود الذين عانوا من ظروف مزرية تحت تصرف شرطة *الملة*. وتشير الروايات المباشرة– مما زاد الأمر سوءًا – إلى أن قوات الجومير كانت تغتصب الطعام والمسكن من يهود الرباط طوال هذه المحنة. وقد تم تسجيل أعمال مشابهة في المدن الأخرى بأنحاء السلطنة مثل مكناس وفاس، كان يقوم بها في الغالب ما أسماه أحد المؤرخين عناصر "المشاركة النشطة" من موظفي الحكومة ورجال الشرطة والجنود الأوروبيين و"العناصر المحلية".[34]

وفي تونس، كان العوام من العرب – والذين تزايدت أعدادهم بعد عودة المجندين العرب المسرحين من الجيش الفرنسي بعد استسلامه لألمانيا – يوجهون أنظارهم نحو اليهود بصورة متكررة.[35] ففي أغسطس من عام 1940، شهدت مدن الكاف وعبا وقصور ومختار وسليانة أعمال شغب ونهب ضد اليهود. وقد عكس العنف، والذي زادته حدة الشائعات التي تقول بأن اليهود اختطفوا فتاة مسلمة، تزايد عاطفة معاداة السامية بصورة عامة، مع تزايد اللوم الموجه إلى اليهود عن النقص في الحاجات الذي حدث وقت الحرب.[36] وكان على الفرنسيين أن يلوموا أنفسهم لتغذيتهم الشعور المعادي لليهود، لكنهم الآن أصبحوا أشد خوفًا من ذي قبل لأن " السخط لدى العامة من المسلمين"، على حد تعبير الأدميرال إيستيفا، المقيم العام الفرنسي، قد يتطور إلى قلاقل عامة ضد الفرنسيين.[37] وكان من العبثية التراجيدية التي شهدتها هذه الأيام، أن يلوم المسئولون الفرنسيون اليهود على ما حل بهم (أي باليهود). وفي إحدى المرات طلب وزير خارجية الحكومة الفيشية بول بودوين من إيستيفا أن يحذر زعماء اليهود بلغة "صارمة وصريحة" من عواقب التحريض ضد البيتينية وأن يخبرهم بأن عليهم تقبل هذا الاضطهاد في صمت. كما أمر إيستيفا باتباع طرق هادئة في التعامل مع العرب، مثل إطلاق سراح من أدينوا بالنهب والسرقة في أعمال الشغب ضد اليهود.[38] ومع ذلك فقد استمر العنف. وفي نوفمبر 1940، وقعت أعمال شغب معادية لليهود في مدينة دقاش. وفي العام نفسه وقعت نفس الأعمال ضد اليهود في قفصة.

بعد ذلك وفي مايو 1941، كانت مدينة قابس الساحلية مسرحا لأسوأ تفجر للأوضاع حيث استمرت أعمال العنف والنهب والقتال لثلاثة أيام. وقد تطورت الأحداث والتي بدأت بهجوم عصابة مكونة من ثلاثين عربيًا على معبد يهودي، والذي ربما يكون قد وقع على إثر أخبار زوال الحكم المؤيد للنازيين في العراق والذي لم يدم طويلا، إلى موجة من العنف العام خلفت ثمانية قتلى وعشرين مصابًا من اليهود.[39] ومرة أخرى كان موقف رجال الشرطة المحليين من العرب في أحسن حالاته هو عدم الاستجابة وفي أسوئها هو الاشتراك في الجرائم ضد اليهود.[40] كان العنف في قابس مروعًا. ويتذكر يوسف هوري، أحد الناجين، ما حدث لجارته أفيلا راكاش. كانت راكاش في مطبخها الصغير، تطهو الطعام لأسرتها عندما اقتحمت عصابة من العرب المحليين منزلها. ووفقًا لرواية هوري، فقد قاموا بصب وعاء من الحساء المغلي فوقها وعذبوها داخل المنزل ورجموها بالحجارة ثم قتلوها.[41] ويقول ناج آخر، يوسف ميمون، إنه في أحد أحياء قابس، اجتمع الجيران من العرب واليهود في أحد الاحتفالات المسائية – يأكلون ويشربون – في الليلة التي سبقت أحداث العنف. ونفس الأشخاص الذين تقاسموا الخبز مع اليهود الليلة الفائتة، هم الذين هاجموهم الليلة التالية. "على الرغم من أن العلاقات كانت بيننا جيدة، كان من بينهم من يكره اليهود لا لشيء سوى لأنهم يهود" على حد زعمه.[42]

وقد ظل تزيفي حداد، والذي عاش في نهاية شارع غالبيته من العرب بالقرب من أحد المقاهي، تعاوده صورة والدته التي غادرت المنزل لإحضار أخته عندما رأت نذر العنف تلوح في الأفق. وما إن خرجت من الباب، حتى قام أحد العرب بطرحها أرضًا ثم قام آخر بالإمساك بها محاولا ذبحها. وسمع تزيفي صراخ والدته فخرج مسرعا إلى الشارع ليرى الدم يتدفق من وجهها وقدميها. وأخيرا وصل والد زيفي لينقذ زوجته، التي نجت من القتل بمعجزة. وظلت تحمل ندبة في رقبتها طوال حياتها.[43]

وبعد انهيار النظام في قابس، تدخلت الشرطة الفيشية للمرة الأول بالقوة والحسم. ولم يكن ذلك عن تعاطف مع الضحايا من اليهود. إنما كان لمصلحة فرنسية: فقد كان هناك تخوف من أن يفضي العنف إلى فوضى تؤدي لمزيد من فقدان الفرنسيين السيطرة والهيبة. وفي الحقيقة، فإن المسئولين الاستعماريين لاحظوا مرارًا أن استسلام فرنسا إلى الألمان قد محا هالة القوة والعظمة التي أدخلها الفرنسيون على نفوس العرب الذين انكشف لهم ضعف الفرنسيين فشرعوا في استغلاله. يظهر هذا في برقية إيستيفا إلى رؤسائه في الحكومة الفيشية:

من الضروري أن ندرك أن مكانة الألمان كانت تزداد خلال الفترة الماضية. مما حدا بالمسلمين إلى اعتبار أنفسهم في موقف أفضل كثيرًا من اليهود الذين وضعوا ثقتهم في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية... وفي قابس، أدى وجود المسئولين الألمان ، ودون تدخل من جانبهم، إلى اعتقاد العرب بأنهم سيجدون الحماية في حالة الشغب. [وقد شرحت في وقت سابق] الفكرة المثيرة التي سادت بين التونسيين وحتى بين حاشية الباي في أن هتلر هو سيد العالم أجمع وأن فرنسا، في وصايتها، تمارس صلاحيات انتدابها فقط بفضل سخاء وكرم القائد.[44]

ولاستعادة السيادة والسيطرة الفرنسية، أمر إيستيفا بالقبض على العديد من المخربين العرب، حيث تم إعدام خمسة منهم بعد ذلك في القصبة بتونس. غير أن أعمال جابي تركت آثارها على كل من اليهود والعرب. فاليهود الذين وضعوا، لعقود، ثقتهم في فرنسا باعتبارها قوة قادرة على توفير الحماية شعروا بأن الفرنسيين تحركوا بعد فوات الأوان وكانوا حريصين للغاية على المشاعر العربية. والعرب، من جانبهم، وهم الذين شاهدوا، باستحسان

في الغالب، الحكومة الفيشية وهي تفرض قوانين صارمة معادية لليهود، شعروا بالدهشة لقيام المسؤولين الفرنسيين بعقابهم فقط لأنهم قاموا بتجريد هذه الإجراءات من الكياسة القانونية وتنفيذها.[45]

ولم يكن الحراس العرب العاملين تحت قيادة المسؤولين الألمان والفرنسيين والإيطاليين في معسكرات السخرة بمثابة المجموعة العربية المنظمة الوحيدة التي انحازت إلى جانب قوات المحور. فقد تطوع جيش صغير من العرب الآخرين للخدمة، سواء بطريقة مباشرة في وحدات ألمانية خاصة أم في تشكيلات شبه عسكرية حاربت مع قوات المحور أو وفرت الدعم لها.

وقد تم تنظيم الفيلق الإفريقي – سُمي كذلك فيلق المتطوعين الفرنسيين من تونس - في بداية الأمر على يد المسؤولين في الحكومة الفيشية عقب عملية تورش. وكانت الوحدة قوامها 400 جندي، ثلثها من العرب والباقي من المؤيدين للنازية الذين ينتمون لخلفيات أوروبية مختلفة. وفي فبراير 1943، تولى الجيش الألماني بشكل تام قيادة الفيلق. وخلال العام التالي، حاربت القوة ضد كل من الجيوش البريطانية وقوات فرنسا الحرة. وقد وجهت إلى قائدها بيير كريستوفيني تهمة الخيانة من قبل المحكمة العسكرية الفرنسية في عام 1944 وتم إعدامه.

بعد ذلك تم تنظيم تشكيل ثان – هذه المرة عربي خالص – أطلق عليه لواء الشمال الإفريقي، وكان مؤلفا من مجموعة من المتطوعين الجزائريين تم تدريبهم تحت الإشراف الألماني بقيادة ضابط فرنسي سابق يسمى محمد المادي والذي عرف بمعاداته الشديدة للسامية وأطلق عليه لقب "محمد التابع للقوات الخاصة". وقد تم إرسال الوحدة لقتال الموالين بإقليم دوردوجن في فرنسا.[46]

وإضافة إلى هذه المجموعات شبه العسكرية، حاول الألمان تنظيم وحدات خاصة مكونة من جيوش عربية تعمل مباشرة تحت قيادتهم. وفي يناير من عام 1942، أنشأوا كتيبة التدريب الألمانية - العربية، والتي جمعت العرب الذين أُخذوا كأسرى حرب بعد خدمتهم في الجيش البريطاني أو الفرنسي. وقد توافد المتطوعون من مصر والشرق، وحتى من مناطق بعيدة مثل المملكة العربية السعودية، مؤكدين بذلك على أنه لا يهم إذا ما كان المستعمر البغيض بريطانيًا أم فرنسيًا. وقد لعب الألمان على وتر كراهية العرب للاثنين. وكان كل جندي يرتدي رقعة من القماش المصنعة خصيصا وتحمل الكلمات "أمة عربية حرة" باللغتين الألمانية والعربية. وربما يكون أشهر تشكيل عربي في الجيش الألماني هو وحدة التشكيل الخاصة (Sonder Verbande) رقم 287، والتي كانت تُعرف كذلك بالفيلق العربي الألماني، وتتكون من ثلاث كتائب، تشمل أفرادًا من العرب وفريقًا من الضباط الألمان. وفي هذه المجموعات الفرعية المتنوعة، شاركت جيوش الفيلق العربي في العديد من مواقع القتال، من القوقاز إلى اليونان إلى تونس وضد الموالين من اليوغسلاف.

وبصفة عامة، كان الألمان لا يعولون كثيرا على كفاءة هذه الوحدات من المتطوعين العرب، وحتى عندما كان الخناق يضيق عليهم في المعارك لم يكونوا يرون هؤلاء العرب يصلحون لأكثر من حماية المؤخرة أو الدفاع الساحلي. لكن كان هناك استثناء واحد على الأقل، فقد تكونت بعد ذلك وحدة تدمير وهندسة فائقة قوامها حوالي 100 عربي تم انتقاؤهم على يد ضابط ألماني، هو القائد شاكت من فرقة المظلات الأولى، لتتمركز هذه الوحدة في الحمامات بتونس. وقد وصفهم شاكت بأنهم مزيج من "المغربيين والجزائريين والتونسيين والسنوسيين والتوارج والسوريين والمصريين والعراقيين وعرب الصحراء." وقد طارت الوحدة إلى برلين لتتلقى التدريب في مدرسة المظلات بمدينة ويتشتوك بما يؤهلها للقتال بكفاءة خلف خطوط الحلفاء أثناء القتال للسيطرة على تونس.

من الصعب تقدير العدد الإجمالي للعرب الذين تطوعوا للقتال بجانب الألمان. ويقترح أحد الملاحظين العسكريين أن ما يقرب من 13000 عربي تطوعوا للخدمة مع قوات المحور خلال الحرب، التحق نصفهم تقريبًا مباشرة بالجيش الألماني والفرق الألمانية الأخرى، أما البقية فقد تم إلحاقها بالقوات الفيشية الفرنسية. وكان الإسهام العسكري المباشر لهؤلاء العرب ضئيلاً، لكنهم مهدوا "الطريق عن طريق الدعاية للمجهود الحربي الألماني."[47]

وهناك العديد من الأسباب التي دفعت هؤلاء العرب للانضمام إلى القوات الألمانية. فبعضهم فعل ذلك بدافع كراهيته للمستعمرين الفرنسيين وترحيبه بأي قوة يمكنها أن تهزمهم. والبعض الآخر كان حريصًا على أن يكون في الجانب الفائز بالحرب، وبالأخص في وقت كانت تتفوق فيه قوات المحور. أما بالنسبة للبعض الآخر، فقد كان هناك حافز اقتصادي يتمثل في فرصة العمل مقابل المال في ظروف كانت قاسية. ومن المؤكد أن كراهية اليهود لعبت دورًا. وكما تدل الملصقات والنشرات الإعلانية التي تنتمي إلى تلك الفترة، كان اللعب باستخدام

"ورقة اليهود" فكرة أساسية لآلية الدعاية الخاصة بقوات المحور وبلا شك أحد الدوافع المؤثرة. ورغم أنه لا يوجد سجل معين للوحدات العربية التي شاركت في الهجمات التي قادها الألمان أو استحثوها ضد اليهود، إلا أن وجودها كان ملموسا لأنها تعكس الالتزام المتعصب من جانب بعض العرب بالمجهود الحربي الأكبر للألمان.

وهناك فئة "الأوغاد" – وهي درجة لا تزال في مكان أعلى على سلم التواطؤ – شملت هؤلاء العرب الذين تطوعوا بخدماتهم للمساعدة المباشرة في اضطهاد اليهود. ولم يجبر هؤلاء العرب أحد على العمل بجانب السلطات الألمانية، أو استضافة ضباط قوات البوليس السري النازي (الجيستابو)– ليس فقط رجال الجيش الألماني النظاميين – في منازلهم، أو تعقب العمال اليهود الفارين، أو اقتحام منازل اليهود لسلب الممتلكات، أو الإبلاغ عن اليهود من نفس البلد.[48] لقد كان هؤلاء العرب شركاء كاملين في الممارسات الوحشية التي ارتكبتها النازية والفيشية والفاشية ضد اليهود المحليين.

ويحوي الأرشيف الوطني التونسي، على سبيل المثال، شهادات شفهية لفرنسيين وعرب ضد رجل يدعى يوسف بن حميدة بوفهري. وفقًا لهذه الروايات، تولى بوفهري توجيه الدوريات الألمانية كعضو في فرقة ألمانية، وقام بنهب المنازل والشركات بل وقام بقيادة مجموعة من العرب الآخرين الذين أجبروا على العمل لصالح الألمان.[49] وفي ملف آخر، يحكي أحد المسئولين في الحكومة الفيشية كيف كان " الشباب التونسي بصحبة الجنود [الألمان] يقومون بالدخول إلى منازل اليهود والحصول منها على المأكل والمشرب تحت التهديد. وكان اليهود يتنفسون الصعداء ويشعرون بالسعادة عندما ينتهي الأمر عند هذا الحد ولا يطلب [التونسيون] معاشرة زوجاتهم أو بناتهم...."[50]

يحكي، آموس شوفان، الذي قضت أسرته فترة الاحتلال مع جدهم المريض في قابس، عن صباح السبت من عام 1943 عندما وصلت القوات الألمانية لجمع العمال اليهود. دخل الألمان بمساعدة اثنين من المترجمين العرب إلى معبد اليهود الرئيسي في المدينة. ويتذكر آموس أن والده طلب من الألمان أن يسمحوا لمن بالمعبد بالانتهاء من صلاتهم، لكنهم رفضوا. وعندما طلب الحاخام من كل شخص أن يخرج من المعبد وأن يتقبل مصيره، بدأ والد آموس الشجار مع العرب الذين كان يعرفهم لأنهم من سكان المدنية. وكانت معركة خاسرة. فقد قام العرب والألمان معًا بضربه وجره على الأرض وأخذوه مع ابنيه الأكبرين للعمل في تفريغ الذخيرة العسكرية بمهبط الطائرات في المدينة. يقول آموس باحتقار بأن العرب كانوا أسوأ نوع من المتعاونين: لقد كانوا "مرشدين"[51]

وقد عبر أحد الصحفيين البريطانيين الذين دخلوا مدينة قفصة مع قوات الحلفاء بعد ساعات فقط من ترك الألمان لها عن صدمته لحجم السلب الذي شاع في المدينة. يكتب فيليب جوردان في مذكراته عن أيام الحرب أنه "تم نهب ممتلكات جميع اليهود بالمدينة على يد العرب بتشجيع من الألمان". "حتى الأبواب والنوافذ سرقت. كان شيئًا بشعًا."[52]

ويصف باول جيز كيف قام الجنود الألمان و"اللصوص العرب" معا بشن هجمات ليلية على الأحياء اليهودية في تونس. في البداية، حسب روايته، كانت الغزوات قاصرة على حوادث السرقة الصغيرة وابتزاز المارة من السكان المحليين. ومع مرور الوقت، ازداد الموقف سوءًا. ويذكر أنه في إحدى الليالي في منتصف يناير "دخل الألمان ومعاونوهم المساكن الخاصة وسلبوا الأموال والمؤن. لقد اغتصبوا امرأتين على مرأى ومسمع من زوجهما وأطفالهما، وتحت التهديد بالمسدسات." وأخيرا، أصبحت السلطات الألمانية مهتمة بالحد الذي وصلت إليه مخالفة القانون والإضرار من قبل تحالف الألمان والعرب. وقد حسم قادة الجيش الألماني المشكلة عن طريق إصدار الأوامر بمنع الجنود الألمان من دخول الأحياء اليهودية في تونس.[53]

ويحكي اليهود الناجون من الاحتلال الألماني في مناسبات كثيرة عن المخبرين من العرب. يذكر تزيفي حداد، على سبيل المثال، كيف أنه في صباح يوم من أيام السبت في عام 1943، أرشد اثنان من العرب اثنين من الألمان إلى منازل جميع الجواهرجية من اليهود في مدينة قابس، لابتزاز أموالهم.[54] ووفقا لموريس ياعيش، كان العرب دائما برفقة الجنود الألمان في كافة أنحاء تونس، حيث يتم إيقاف اليهود للسؤال عن بطاقات الهوية.[55] ويذكر حاييم مازوز، كيف أن "العرب حرضوا الألمان ضدنا"، بالإشارة إلى اليهود في شوارع مدينة الحامة "هذا يهودي" و"هذا يهودي" كما يتذكر قولهم.[56] وتحكي زوجة إبراهام سارفاتي، من مدينة حلق الوادي عن أن العرب كانوا "سعداء لأنهم سيتسببون في مشكلات لليهود.... كنت أسمع العرب وهم يتحاورون ويقودون [الألمان] إلى منازل اليهود قائلين "هنا بغي. أي عاهرة."[57]

ويحكي باول جيز الذي كان يدير خدمة تجنيد اليهود في تونس قصة عن بعض العرب الذين غضبوا من غارة للحلفاء على مطار العوينة في تونس خلفت الكثير من القتلى. فقرروا الانتقام بمهاجمة مجموعة من اليهود وقاموا بالإبلاغ عن ستة منهم إلى الألمان لأنهم أعطوا إشارات إلى قاذفات الحلفاء. ولحسن حظ اليهود، فحتى الألمان تعرفوا في النهاية على عبثية التهمة، فمن المستحيل من الناحية التقنية للطيار أن يتبين إشارات اليد أثناء الطيران على ارتفاع فوق 15.000 قدم. ولكن، كما يشرح جيز، كانت لحظة طويلة خاف فيها اليهود من فقدان حياتهم - وكانوا محقين في ذلك.[58]

فحين تم توجيه اتهام مماثل إلى فيكتور ناتاف، وهو طالب حاخامي من أريانة، إحدى ضواحي تونس، دفع حياته ثمنًا لذلك. وبتجميع القصة من وثائق عديدة، يتضح أن أربعة من العرب المحليين في أريانة، والذين كانوا معروفين جميعًا لدى عائلة ناتاف، أبلغوا عن ناتاف للألمان في 13 ديسمبر 1942. وقد اتهموا ناتاف بإرسال إشارات توجيهية لمساعدة قاذفات الحلفاء. وفي الحقيقة فإن كل ما قام به ناتاف هو إضاءة شموع السبت، والتي يمكن رؤية وميضها عبر ستارة التعتيم التي كانت معلقة في كل منزل تونسي. وفي المساء نفسه، قام جندي ألماني - مصحوبا بأربعة من العرب - باقتحام منزل أسرة ناتاف، ليلقي القبض على فيكتور الذي وجدوه نائمًا. وبعد ذلك بستة أيام، ودون محاكمة، صدر الحكم بإدانته وتم إعدامه رميا بالرصاص. وفي 21 ديسمبر، بعد يومين من الإعدام، ظهر بيان مختصر في صحيفة *تونس جورنال* يفيد بأن "اليهودي فيكتور ناتاف تم الحكم عليه بالإعدام للإضرار بأمن القوات الألمانية".

وبعد استيلاء الحلفاء على تونس، حاول والدا فيكتور إقناع سلطات فرنسا الحرة بالعمل على إدانة العرب الأربعة. ووفقا للشكوى التي قدمتها والدة فيكتور، نينيت ناتاف، إلى الشرطة، أن أحد العرب – رجل يدعى سعيد بن مصطفى الغومراسنى – كان يضمر الشر لأسرة ناتاف منذ أن نشأ بينهما خلاف مالي فيما يتعلق بخطة استثمار في مخبز صغير. ورغم أن السجلات الأرشيفية التونسية تحتوى على الشهادة الرسمية المقدمة من السيدة ناتاف، إلا أن القضية تجمدت عند هذا الحد. ولا يزال غير معروف ما إذا كانت السلطات الفرنسية قد بحثت في الأمر وقبضت على العرب الأربعة. لكن المعروف أن سكان أريانة لم ينسوا الظلم الذي وقع على فيكتور وأطلقوا اسمه على الشارع الذي كانت تسكن به عائلته. لكن الاسم لم يعد موجودا الآن.[59]

ومن قصص الابتزاز والقتل الأخرى، القصة التي يحكيها أموس شوفان، والتي رغم أنها غير مباشرة، إلا أنها أكثر إثباتا لمدى القسوة التي تعرض لها اليهود، فقد كبر آموس وهو يسمع من عمه تلك القصة التي وقعت في القرية العربية الكبيرة، حاجب العيون. أثناء الحرب، دأب السكان المحليون من العرب على اغتصاب أموال اليهود الذين يسعون للحصول على المأوى بالقرب من قريتهم وتهديدهم بإبلاغ الألمان عن العمال الذين يحاولون تجنب الاعتقال للعمل في السخرة. وفي إحدى الحوادث، قامت مجموعة من اللصوص العرب بتوقيف عم آموس وصديقه على أحد الطرق وطلبوا منهم ليس المال فحسب، بل والملابس كذلك، مما أجبر الرجلين على العودة إلى المنزل عاريين. وفي وقت لاحق في المساء نفسه، قامت نفس المجموعة من اللصوص باقتحام منزل يهودي آخر في القرية، وتهديد الأسرة والحصول على مدخراتها. ولما كان المال الذي يدخره الوالد الفقير لا يكفي لإرضاء جشعهم، قام أحد اللصوص بالتقاط ابن الرجل وكان طفلاً لم يتجاوز عامه الأول، والخروج به من المنزل وإلقائه في دغل من أشجار الصبار. يقول آموس، إن الطفل مات من أشواك الصبار، وكان موته مؤلما تنفطر له القلوب. وحتى 2003، عندما قدم آموس هذه القصة في المقابلة التي أجريت معه، كان والد الطفل لا يزال حيا ويعيش في مدينة بيرشيفا جنوب النجف في إسرائيل، لكنه لم يتكلم عن الحادثة لعقود.[60]

بعد ذلك، كانت توجد مجموعة صغيرة لكنها مؤثرة من العرب التونسيين الذين انضموا تماما ودون تحفظ إلى الألمان. وكان هذا هو الحال، على سبيل المثال، مع قبيلة جلاتي عقبي الذين وضعوا الفندق الخاص بهم في شارع باب المنارة تحت تصرف السلطات الألمانية[61]. وقد انحاز عدد من العرب تمامًا إلى الألمان حتى أنهم عادوا مع القوات الألمانية إلى أوروبا. ومن بين هؤلاء رشيد إدريس، وكان قائدًا لمجموعة الشباب المسلم المؤيد للنازية (Jeunesse Musulmane)، وكذلك تاجر اسمه حمادي بو جمعة، والذي يقال إنه جمع مالاً وفيرًا بفضل اتصالاته مع سلطات الاحتلال الألماني بما مكنه من إرسال أمواله في سويسرا. ومن الشخصيات الأخرى البارزة، شيخ قرية أولاد أكرم الذي انحاز بشدة إلى المحور حتى أنه عندما وجد نفسه خلف الخطوط البريطانية حاول الهرب إلى الجانب الألماني من الجبهة. وعندما ترك الألمان مدينة قابس، يقال أن كلا من حاكم المدينة وقاضيها غادروها مع الألمان.

وبعد التراجع الألماني والانهيار النهائي للحكم الفيشي في تونس، قام نظام فرنسا الحرة بتطهير أعداد كبيرة من المسئولين والبيروقراطيين ورجال الشرطة على خلفية تعاونهم مع الألمان. وكان عدد كبير من هؤلاء من العرب.[63] غير أنه في الكثير من الحالات، لا تقدم السجلات الرسمية شرحا للأسباب الحقيقة للعقاب: هل كان ذلك لأن هؤلاء العرب تعاونوا مع الألمان؟ أم لأنهم اضطهدوا اليهود؟ أم لأنهم استفادوا من الاحتلال الألماني لفرض سياساتهم القومية المعادية للاستعمار والنظام الفرنسي؟ وبالنسبة للمسئولين الفرنسيين – سواء الحكومة الفيشية أم فرنسا الحرة – كان التحريض إلى القومية التونسية يستحق عقوبة أكبر من المشاركة في حملة من الاضطهاد العنيف لليهود. وبالتالي فإن تصفية أحد العرب لكونه عضوا سريا في خلية وطنية كان أمرًا مفهومًا، لكن تطهير عربي لمشاركته في الممارسات المعادية لليهود كان أمرًا محيرًا ومعقدًا. وفي الواقع تقدم السجلات الأرشيفية للسلطات الاستعمارية أمثلة واضحة لما يمكن وصفه إلى حد بعيد بأنه ممارسات معادية لليهود متخفية في مصطلحات قومية لكي يكون الملف أكثر إقناعًا.[64] وقد وجهت إلى العرب مرارا تهمة "النهب" – وهي جريمة تعني في الغالب سرقة الممتلكات من منازل اليهود أو شركاتهم المتروكة – لكن لا توجد إشارة إلى تعلق الأمر باليهود.[65] وفي قمعهم المتعصب للقوميين التونسيين، كان "المحررون" من حكومة فرنسا الحرة في تونس، ليسوا أقل تعصبا من أقرانهم في الحكومة الفيشية. وقد شملت إحدى قوائم ما بعد التحرير المكونة من ثلاثة وثلاثين عربيًا متهمين بالممارسات المعادية للنظام الفرنسي خلال فترة الاحتلال الألماني ثمانية من المسئولين في البلاط الملكي التونسي وعددًا من دعاة مناهضة الاستعمار الفرنسي، وواحدًا فقط لأنشطة معادية لليهود. وهناك قائمة أخرى من 106 من العرب تمت محاكمتهم وإدانتهم لأعمال ارتكبوها أثناء الاحتلال الألماني ضمت سبعة تم الحكم عليهم بالإعدام وأربعة وعشرين آخرين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة. كان بعض هؤلاء قد تطوع للخدمة في القوات الألمانية، فيما قدم البعض الآخر المعلومات إلى الألمان أو ساعدهم في الحصول على البضائع، والغالبية منهم تم الحكم عليهم بتهمة "نهب" أو "سرقة" المنازل التي تركها أهلها. ورغم أن اليهود كانوا في أغلب الحالات وعلى نحو قاطع ضحايا الكثير من هذه الجرائم، فلم يشر الملف في أي موضع منه ولو مرة واحدة إلى تعلق الأمر باليهود.[66] وفي تلك الحالات النادرة عندما كان تعلق الجريمة باليهود أمرا لا يمكن إنكاره، لم يكن المذنبون دائمًا ينالون العقاب. والعربي الوحيد الذي ذكر في حيثيات الحكم عليه أنه بسبب "نشاط معاد لليهود" - عزوز بن مصطفي بن الحج علي، والشهير بعزوز الغونزالي – كان مسؤولا عن "إدخال أحد الجنود الألمان إلى منزل يهودي في المرسى لتمكينه من اغتصاب امرأة يهودية." ورغم بشاعة الجريمة - الاغتصاب – إلا أن التقرير لم يذكر في الحقيقة ما إذا كان تم القبض على الشريك العربي للألماني.[67]

وحقيقة القول، أنني أثناء بحثي لم أعثر سوى على حالة واحدة لعربي تم القبض عليه ومحاكمته وإدانته والحكم عليه بالسجن للتعاون مع القوات الأجنبية في اضطهاد اليهود. وربما كانت هناك حالات أخرى، غير أن قصصهم إما تم إغلاقها في سجلات المحاكم العسكرية الفرنسية، والتي ظلت مغلقة لمدة 100 عام، أو فقدت مع مرور الوقت. والقصة الوحيدة التي عثرت عليها هي القصة البشعة للسرقة والخداع والخيانة والموت التي افتتحت بها هذا الكتاب، قصة حسن فرجاني والرجال الثلاثة من عائلة شملا الذين تم ترحيلهم ثم إعدامهم في ألمانيا.[68]

عندما قابلته في باريس، كان فريدريك جاسكيت قد أكمل لتوه مخطوطة تتكون من ثمان وتسعين صفحة تشتمل على كافة تفاصيل مأساة عائلته. والطرف الوحيد الذي لا يعرف عنه شيئًا هو فرجاني. فلم يرغب أبدا في الانتقام ولم يفكر مطلقا فيه كثيرًا. يقول لي: "لم أطلب الثأر، رغم كل الأخبار المريعة التي سمعتها عن مصير عائلتي، فلا أزال رجلاً سعيدًا يعيش حياة حافلة بالسعادة." لكن عندما أخبرته بأن لدي تفاصيل ذلك الفصل المفقود في قصة عائلته، كان متلهفًا للاستماع. وأعتقد أن هديتي له كانت عاملاً إضافيًا في التقريب بيننا. إليكم ما أخبرته به.

ذات مساء حار في مايو 2004، قابلت مصطفى فرجاني في ضاحية بن عروس في تونس، وهي ضاحية لم تكن حتى موجودة أثناء الحرب. ومصطفى الذي كان يبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا وقتئذ هو ابن أخ حسن فرجاني وابن محمد الأخ الأكبر لحسن. كان مصطفى نفسه قوميًا طيلة حياته، سجن عام 1954 لأنشطته السياسية. وبعد الاستقلال، قضى واحدًا وثلاثين عامًا يعمل في وزارة الثقافة في المكتبات وتنظيم الأحداث وإلقاء المحاضرات. كنت أخطط للقاء مصطفى في الحمامات، لكنه أتى إلى تونس للاحتفال بميلاد أحد أحفاده. كان الأستاذ حبيب كازداجلي، وهو أكاديمي متميز وزميل خدوم في جامعة تونس في منوبة، هو الذي رتب اللقاء. وقد انضم إليّ وساعدني في المقابلة.

قابلنا مصطفى بالقرب من مقهى صغير في الضاحية التي تعيش بها ابنته. كان متوترًا ويرغب في إعطاء انطباع جيد عن شخصيته، ورغم سخونة الجو، إلا أنه كان مرتديا رابطة عنق وسترة ثقيلة من الصوف. كان رجلاً ودودًا، ممتلئ الجسم، يتسم بالكياسة في الأسلوب، وذا صوت أجش عميق، يدخن طيلة الجلسة. ويمكن للمرء أن يتخيل قلقه. فبعد هذه السنوات الطوال، يتكبد "أستاذ جامعي" – كما قدمني له حبيب – مشقة المجيء من الولايات المتحدة الأمريكية ليسأل عن الفصل الذي ربما يكون الأشد غموضًا في تاريخ عائلته: القبض على عمه وإيداعه في السجن.

ونحن جلوس نتناول الشاي بالنعناع، بدأ في سرد التفاصيل. ولد حسن فرجاني في عام 1907 وكان الابن الثالث في عائلة فرجاني بالحمامات. كان فرجاني، والذي تزوج لكنه لم يرزق بأطفال (تبنى هو وزوجته طفلة بعد ذلك)، يدير محلا صغيرا للمنسوجات في قرية الحمامات الساحلية.

ثم بدأنا في قصة حسن ورجال عائلة سملا. هل كان حسن فرجاني مخبرًا يعمل لحساب الألمان؟ في البداية، حاول مصطفى المناورة في الإجابة على السؤال. يقول موضحًا أنه كانت هناك "روايتان" للقصة. ووفقا لإحداهما، كان الحظ العاثر لرجال عائلة سملا هو الذي جعل الألمان يستوقفونهم. فربما لو كان يوما غير ذلك اليوم، وربما لو كان حارسًا آخر هو الذي يقف على نقطة التفتيش غير ذلك الذي كان موجودًا أو لو كانت الحركة أكبر بالشارع، لهرب رجال عائلة سملا ولم يكن ليسمع عن عمه أي إنسان. ووفقا للرواية الثانية، كان حسن في الحقيقة عميلاً محرضًا يعمل لحساب الألمان، وكان رجلاً ماكرًا دبر الخطة كلها للإيقاع برجال عائلة سملا المنكودين.

وحتى الآن، وهذا شيء يحسب له، كان مصطفى راويا يتوخى النزاهة، يحكي ما حدث بين عمه وجوزيف سملا- من منظوره الخاص، بالطبع –دون تكلف أو اتخاذ موقف دفاعي. لكن بعد ذلك، عندما انفعل مع أحداث القصة، اتخذ مسلكا مختلفًا. كان حسن يعتقد، على حد قوله، أن ابن سملا جيلبرت - ضابط سابق في الجيش الفرنسي المنهزم – يعمل جاسوسًا لحساب الحلفاء. وكان قد قام أحد الفرنسيين المؤيدين للحكومة الفيشية في الحمامات بتحذير حسن بأن عليه أن يتوخى الحرص: إذا كانت عائلة سملا في طريقها إلى الحمامات، فستكون في الغالب متورطة في عمل خطير. فقد يكون جيلبرت جاسوسًا، في مهمة لتزويد قاذفات الحلفاء بإشارات إرسال عن أهداف المحور، هذا ما أخبره الرجل الفرنسي لحسن.

لو كان حسن يتآمر مع الألمان للإيقاع بعائلة سملا ("لو" هذه أصبحت غير مبررة مع استمرار الحديث)، فقد كان ذلك ليس لأن رجال عائلة سملا كانوا من اليهود، يقول مصطفى، إنما لأنهم خونة – تونسيون تنكروا لوطنهم وأخلصوا الانتماء للفرنسيين الذين قمعوا سعي تونس لنيل استقلالها. وقبل ذلك بنصف ساعة، في حالة الانفعال الشعوري الوحيدة التي شهدتها المقابلة، ثار مصطفى على المحكمة التونسية التي حكمت على عمه بالموت قائلاً "كانت تكتظ بالإنجليز واليهود والفرنسيين". والآن، في نهاية الحديث، يحاول أن يضم عمه في عباءة القوميين.

ولكن حتى الافتخار بالعمل القومي خبا مع الوقت. لقد كبر مصطفى هو وأبناء جيله من عائلة فرجاني مثقلون بتبعات "الشأن اليهودي" على حد قوله. لقد كان مصير السجن الذي آلت إليه حياة عمه شبحًا يلازم أفراد العائلة كظلهم. "كنا دائما نتابع أخبار حسن"، يقول مصطفى. "في كل عيد لم نكن نشعر بالسعادة مثل الآخرين، لأنه كان علينا أن نقضي اليوم في زيارته بالسجن." وقبل تعديل عقوبة الإعدام، كان حسن يعتقد في إحدى المرات أن موعد الإعدام قد اقترب حتى أنه في هذه المرة ودع زوجته وأمه لأنه كان يراها "الزيارة الأخيرة".

لكن مصطفى يعترف بأن عمه لم يكن مجرمًا عاديًا. لقد كانت تهمته في نهاية الأمر هي التآمر، وهي خيانة أدت إلى إعدام ثلاثة من اليهود على يد الألمان. (زعم مصطفى أنه لا يعرف تفاصيل إعدام رجال عائلة سملا، لكنه لم يكن مندهشًا من وصفي لمصيرهم المروع). وباعتراف مصطفى نفسه، كان هناك اثنان على الأقل من اليهود بلا ذنب، وأنه ليس ثمة دليل على أن الثالث، جيلبرت كان الجاسوس الذي زعم المدافعون عن حسن أنه هو.

وعندما تم تذكيره بتفاصيل القضية، بدأ دفاع مصطفى عن براءة حسن يتضح. وسألته، لماذا إذن لم يقبض الألمان على جيلبرت فقط، دون حاجة للمرور عبر عناصر خطة الإيقاع به؟ فكانت إجابته أن ذلك سيكون "عمل مفضوح"، بما يعني أن القبض على عائلة يهودية أثناء محاولتها الهرب إلى خطوط الحلفاء كان يبدو منطقًا أكثر قبولا للترحيل من الإمساك بجاسوس للحلفاء.

ولكن إذا كان حسن مجرما غير عادي، فإنه كذلك لم يعتبر - على الأقل في نظر عائلة فرجاني- رجلاً مذنبًا. إنما كانت العائلة دائمًا تنظر إلى عمه باعتباره "ضحية"، كما يقول مصطفى. أما بالنسبة لحسن، يقول مصطفى أنه لم يسمعه مطلقا يعبر عن ندمه لما حل برجال عائلة سملا. لكنه بعد ذلك، قال شيئًا، كفكرة تالية، بصوت خفيض: "ربما لنفسه".

وعندما سردت هذا الحوار لفريدريك جاسكيت في فرنسا، تنهد بعمق. "ما فعله فرجاني كان حقا شيئًا مريعًا. لكني لا أكاد أصدق أن هناك من البشر من سيفكر في القيام بذلك إذا كان يتوقع أن الأمر سيودي بعائلتي إلى هذا المصير البشع. بالتأكيد، كان في حاجة إلى المال وكان على استعداد للتضحية بعائلتي لهذا الغرض. إنه لأمر مريع أن تتخيل أنه كان يدرك أن خيانته ستتسبب في قطع رأس أبي." ولما سألته ما الذي كان يتمنى أن يقوله مصطفى لي، أجاب "أن يطلب الصفح" ولكن إذا كان هو – نيابة عن عائلته – لا يعترف بالذنب بصورة كاملة، فقد كان من الصعب أن يطلب الصفح." اقترب فريدريك أكثر نحو ختام الحديث الذي يتطلع لإنهائه، وقال: "لو كان طلب الصفح، لصفحت عنه."

كم عدد العرب الذين ينطبق عليهم وصف "أوغاد" في قصة المحرقة بالأراضي العربية؟ من الصعب أن نحدد على نحو دقيق عدد الذين لعبوا دورًا مؤثرًا في اضطهاد اليهود. ففي ظل وجود أكثر من 100 موقع للسخرة تم الاعتراف به تنتشر من المغرب إلى ليبيا، كان هناك آلاف من الحراس العرب الذين يراقبون السجناء من اليهود. وهناك عدد أكبر من رجال الشرطة والعمال وصغار موظفي الحكومة العرب الذي ساعدوا الحكم النازي والفيشي والفاشي. وهناك أيضًا الكثير من الذين قدموا الدعم المعنوي والسياسي وأحيانًا العملي للحملة المعادية لليهود مثل المخبرين والمتعاونين واللصوص وملقي الزجاجات والمشجعين، لكن تقدير العدد الإجمالي يعد أمرًا غير مضمون.

وإجمالاً، لم يكن العدد قليل الأهمية. وحتى لو كان 90% من العرب فضلوا اللامبالاة تجاه مصير اليهود في هذه البلدان – فإن هناك عددًا كبيرًا، في رأيي، رغم أنه ليس خارج الحدود تمامًا- ربما يصل إلى 2 مليون من الجزائريين والمغربيين والتونسيين والليبيين كانوا مشاركين أو مشجعين أو متعاطفين نشطين مع العملية المنظمة لاستهداف اليهود. وتتضح أمامنا نتيجة واحدة: بدون هذا الحجم من الدعم العربي – وبالتأكيد، بدون هذا المستوى من القبول العربي- فإن حجم المعاناة الذي لاقاه اليهود كان سيكون أقل كثيرًا.

وهناك نتيجة أخرى واضحة، أيضا: لقد كان من المستحيل بالنسبة للعرب في البلدان التي تخضع للحكومة الفيشية أو الاحتلال الإيطالي أو الألماني ألا يعلموا باضطهاد اليهود. فلم يخل منه مكان. ربما كانوا غير مبالين بالاضطهاد، لكنهم كانوا على علم به. حتى لو حاول العرب تجاهله، فلم يكن بوسعهم تجنب رؤيته. فبامتداد شمال إفريقيا، كانت النسخة المحلية من قانون اليهود قد تم إعلانها عبر القنوات الرسمية ونشرتها الصحف الحكومية مع ذكر كافة التفاصيل القانونية. وفي كل من المغرب وتونس كانت القوانين المعادية لليهود تحمل توقيع الملك العربي. وحقيقة أن أيا من الملكين لم يكن يتمتع بسلطة اتخاذ القرار في الأمر لا يقلل من حقيقة أن القوانين التي أعطياها موافقتهما الملكية تمت الدعاية لها جيدًا من العاصمة إلى الأقاليم. وفي تونس، قام الألمان بتعليق الإعلانات عبر المدينة تلوم "المجتمع اليهودي العالمي" على الدمار الذي تخلفه غارات الحلفاء وتقول بأن سيتم الحصول على تعويضات تبلغ 20 مليون فرانك من اليهود في تونس وتوزيعها على الجمعيات الخيرية العربية. وقد كان يتم تجميع اليهود الذين يتم إجبارهم على السخرة في وسط تونس في أماكن مثل محطة قطارات ماطر على بعد مئات قليلة من الأمتار من فندق ماجستيك، حيث مقر القيادة الألمانية. وبالطبع كان سكان المدينة يعرفون أن هؤلاء يهود، ويهود فقط، تم إجبارهم في الأسابيع الأولى من الاحتلال على السير تحت الحراسة في شوارع المدينة الرئيسية إلى معسكرات السخرة. وفي المناطق الريفية التونسية، أجبر الآلاف من اليهود في المدن والقرى على ارتداء نجمة داود حتى يعرفهم الجميع. وفي الجزائر، كان العرب والأوروبيون هم الذين شغلوا أماكن الطلاب اليهود الذين طردوا من المدارس للرسوم المفروضة عليهم. وبالمثل في المغرب، حل العرب والأوروبيون محل اليهود في الوظائف الحكومية التي طردوا منها على إثر القوانين المناهضة لهم. وهكذا.

وفي ذلك الوقت، منذ ستة عقود مضت، ليس ثمة فرض واحد يمكن قبوله وهو أن العرب في تونس والجزائر العاصمة والدار البيضاء والعديد من الأماكن الأخرى كانوا على علم بتلك "المعاملة الخاصة" التي حصل عليها اليهود. كذلك فإنه لا يمكن إنكار، أن سنوات الحرب في شمال إفريقيا كانت أوقاتًا محيرة بصفة خاصة. كانت فرنسا في حرب داخلية، ولم يكن من السهل على العرب التمييز أي من الفريقين الفرنسيين – الفريق الجمهوري

أو الفيشي - أقل معاداة لمصالحهم، وبالتالي أكثر استحقاقا للدعم. وقد استغل الألمان هذه الكراهية لصالحهم تماما عملاً بسياسة فرق تسد. وكانت النتيجة أن شارك بعض العرب في حملات النازية والفيشية والفاشية ضد اليهود – الكثير منهم بإرادتهم والبعض الآخر بدافع الحاجة، بينما الأغلبية لم يكن لها دور على الإطلاق. ومع ذلك، فليس بوسع أحد أن يعلن بشكل قاطع جهلهم بما كان يجري من حولهم.